الفصل الخامس

حتمية الحل الاسلامى

٤٩ — تمهيد :

الإسلام لايعيش وحده على الأرض ، وإنما سبقته ديانات وعقائد آمن بها مجموعات من البشر ، بعضها ديانات سماوية وبعضها عقائد بشرية ، ومن الطبيعى وفقاً لطبائع الأشياء ، أن يؤمن بعض أصحاب هذه الديانات والعقائد بالإسلام ، ومن الطبيعى أيضاً ألا يؤمن البعض الآخر ، وأن يدخل أصحاب الدين الإسلامى مع أصحاب الديانات والعقائد الأخرى فى صراع ، قد يبدأ بجدال الكلمات ، ولكنه لابد أن يحتكم فى النهاية إلى القوة ، والذى يملك القوة فى النهاية هو الذى يقدر على فرض كلمته ، مع فارق أساسى بين المسلمين وبين أصحاب الديانات والعقائد الأخرى فى هذا الصراع .

هذا الفارق هو إمكانية أن تضم الدولة الإسلامية بين جنباتها رعايا غير مسلمين ، وأن تعطيهم حقوقهم ولا تضيق عليهم ، وذلك لسببين أساسيين :

الأول : أن الإسلام عموماً لايجبر أحداً على اعتناقه تطبيقاً لقوله تعالى « لا إكراه فى الدين » ، ولايبدأ أحداً بعدوان أو بقتال إلا إذا كان ذلك رداً على عدوانه .

ولذلك يقول الله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين » (البقرة : ١٩٠) . « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة

ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (البقرة : ١٩٣) .
لا «ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (الممتحنة : ٨) .

وعلى هذا الأساس فإن الأقليات غير المسلمة فى الدولة الإسلامية ، هى أقليات آمنة على نفسها وعلى حقوقها كاملة بما فى ذلك حريتها فى الاعتقاد وفى ممارسة شعائرها الدينية .

الثانى : أن الإسلام يعترف بكل الديانات السماوية السابقة عليه ، يهوديةأم نصرانية أم غيرها ، ويدعو أتباعه إلى الاعتراف بهذه الديانات والإيمان برسلها عليهم السلام . يقول الله تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله » . (البقرة : ٨٥٢) ومعظم الأقليات تنتمى إلى هاتين العقيدتين (اليهودية أو النصرانية) ولذلك فإن أصحابها يجانب أن لهم حريتهم الكاملة فى الاعتقاد وفى ممارسة شعائر العقيدة تطبيقاً لقوله تعالى « لا إكراه فى الدين » فإنهم بالإضافة إلى ذلك يحظون من جانب الإسلام والمسلمين بالاحترام الكامل لما يؤمنون به سواء كان عقيدة أم رسولا ـ يقول الله تعالى آمراً المسلمين « ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم . وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » .

لهذين السببين فإن إمكانية معايشة الإسلام السلمية للديانات والعقائد الأخرى ممكنة بل وضرورية بحكم قواعد الدين الاسلامى نفسه ، وذلك إذا ملك الاسلام القوة ، وكانت له الهيمنة على بعض أصحاب العقائد والديانات الأخرى : وتاريخ الاسلام كله يشهد على هذا التسامح الدينى مع أصحاب العقائد الأخرى .

فى حين أن الاسلام والمسلمين لايمكن لهم أن يأمنوا إذا ماعاشوا فى ظل سيطرة أصحاب الديانات والعقائد الأخرى ، وذلك بحكم طبيعة الأشياء أيضاً .

فأصحاب هذه الديانات لا يعترفون بالاسلام ، ومن ثم فإن موقف العداء حياله لاتحده حدود ، سواء كانت هذه الديانات سماوية أوعقائد بشرية،ولذلك فإنه إذا أصبح لأصحاب الديانات الأخرى السيطرة الكاملة ، فإن الأمر لابد أن ينتهى بأحد شيئين إما إجبار المسلمين على التخلى عن عقيدتهم ، والدخول فى ديانة من بيدهم الأمر ، أو القضاء على المسلمين تماما ونفيهم من الديار ، وهذا مايحذر منه القرآن الكريم المسلمين فى قوله تعالى « إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً » . وهذ النص الالهى أثبت التاريخ صحته ، مع النصرانية فى الأندلس ، ومع الماركسية فى الاتحاد السوفيتى وغيره من البلاد التى دانت بالعقيدة الماركسية . ومع اليهودية فى فلسطين .

ويعطينا واحدمن مفكرى أوروبا صورة عن إحساس الأوربى وتفكيره تجاه الاسلام فيقول : أما فيما يتعلق بالاسلام ، لاتجـــد موقف الأوربى موقف كره فى غير مبالاة فحسب كما هو الحال فى موقفه من سائر الأديان والثقافات. بل كره عميق الجذور ، يقوم فى الأكثر على صدود من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقلياً فحسب : ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية قوية ، قد لاتتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية او الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ، ومبنى على التفكير . إلا انها حالما تتجه إلى الاسلام تختل التوازن ويأخـــذ الميل العاطفى بالتسرب ، حتى أن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من انفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الاسلام .

ويظهر فى جميع بحوثهم على الأكثر ، كما لو أن الاسلام لايمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث من البحث العلمى ، بل على انه متهم يقف أمام

قضاته ، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لايستطيع اكثر من ان يطلب له مع شيء من الفتور — إعتبار الأسباب المخففة — وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها اكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التى أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى ، أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبدا ان نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد ، ولكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها ، ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً ، وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفى للشهود ، عمدوا إلى اقتطاع اقسام من الحقيقة التى شهد بها الشهود الحاضرون ، ثم فصلوها من المتن ، او تأولوا الشهادات بروح غير علمى من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر ، أى من قبل المسلمين انفسهم .

وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صـــورة مشوهة للإسلام وللأمور الاسلامية ، تواجهنا فى جميع ماكتبه مستشرقو أوروبا ، وليس ذلك بقاصر على بلد دون آخر ، ويظهر انهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة ـ حقيقية او خيالية ـ ينالون بها من الاسلام عن طريق النقد[1] .

هذه الصورة التى يحدثنا عنها المؤلف ، سوف تتضح لنـا أبعادها الحقيقية عندما نعرض لتجربة الاسلام والمسلمين فى الاندلس والاتحاد السوفيتى وفلسطين . لنرى ان هذا الاحساس تجاه الاسلام يأخذ ـ عندما يتاح لأصحابه سيطرة حقيقية على المسلمين ـ موقفاً عملياً لايتغير ، إما أن يقضى على المسلمين أو يتحولوا عن دينهم .

---

(١) محمد أسد ـ الاسلام على مفترق الطرق . ترجمة عمر فروخ ـ ص٥٢ (سنة ١٩٦٥ بيروت) المؤلف نمسوى الأصل ، كان يهوديا ، وكان يسمى ليوبولد فايس ، ثم اعتنق الاسلام وتسمى باسم (محمد أسد)*

ولذلك كان لانحسار الدين الإسلامى عن مركز التوجيه فى البلاد الإسلامية، أكبر الأثر فى التمكين لأعداء الإسلام والمسلمين بشكل كبير فى أوربا ، وفى آسيا ، وبعد أن تمكن الأعداء من تحقيق أهدافهم فى أطراف الدولة الإسلامية انتقلوا إلى قلب المسلمين ، فوضعوا سهامهم فى فلسطين ، لكى يوجهوا منها حرابهم إلى أى جزء من العالم الإسلامى يريدون ، ولكى يضمنوا صمت المسلمين على مايحدث لإخوانهم فى البلدان الأخرى التى يسعى الأعداء ـ وماأكثرهم ـ إلى القضاء على المسلمين فيها ، والمعركة لم تنته بعد ، وما زال الأعداء ينفذون مخططهم ، والمسلمون فى غفلة من أمرهم ، بل لسنا نغالى إذا قلنا — إن المسلمين هم أدوات هؤلاء الأعداء فى تنفيذ مخططهم .

ونظرة إلى خريطة العالم سنجد أن المسلمين مازالوا يطاردون فى كل مكان . فى البقية الباقية من أشلاء المسلمين فى ولايات الاتحاد السوفيتى ، مازال مخطط الماركسية مستمراً لمحو كل أثر للإسلام فى هذه البلاد ، فى الفلبين سنجد أن المذابح الجماعية مازالت تحصد المسلمين هناك ، فى الهند يتعرض المسلمون لكافة أنواع الكيد والحروب من أجل إحكام الحصار عليهم وتطويقهم ، ثم القضاء عليهم مرحلياً .

وإذا انتقلنا إلى أفريقيا سنجد أن هناك الآن هجمة شرسة توجه من الماركسيين إلى مسلمى أفريقيا ، فى الصومال بقتل العلماء ، ويغلق الحاكم المساجد ويقيم عليها الحراس ، ويشرع فى المواريث والأسرة وغيرها بغير ما أنزل الله .

فى أثيوبيا يواجه المسلمون هناك الآن عدواناً عنيفاً من السلطة ، ومالاقاه الأرتريون هناك أبشع من أن يوصف من قصف جوى على مدن وقرى أرتريا ، حتى بلغ عدد اللاجئين منهم إلى السودان ١٩٠ ألف لاجىء يعانون أبشع أنواع العذاب صحياً واجتماعياً ، وتجربة المسلمين فى لبنان أخيراً تدمى

قلب كل مؤمن ، آلاف منهم قتلوا ، قرى مسلمة بأكملها هدمت وشرد أهلها ، وهدمت المساجد وحرقت الكتب والمصاحف ، وبعض هذه القرى كبلدة « راشكيدا » كان أهلها من المسلمين قد سلموا سلاحهم للكتائب إعراباً عن رغبتهم فى السلام ، ولكن الكتائبيين استولوا على السلاح ثم دخلوا القرية وأنذروا أهلها بوجوب إخلائها ، ولما عارض البعض قتلوا من قتلوا منهم ودمروا بيوتهم ، وأحرقت بيوت المسلمين كلها .

نقول إن انحسار الدين الإسلامى عن مركز التوجيه فى الدولة الإسلامية كان له الفضل الأول فى التمكين لأعداء الإسلام من الإسلام والمسلمين .

ومسئولية هذا الانحسار تقع على المسلمين أنفسهم قبل غيرهم ، وسبب الانحسار هذا يرجع إلى شىء واحد ، هو ماوصلت إليه الدولة الإسلامية منذ قرون طويلة من الفصل بين الدين والدولة ، وأصبحت أمور الحكم تدار على غير ما أمر الله ، وللأسف الشديد فإن المسلمين لم يستطيعوا الاستفادة من أعدائهم ، فإنهم لم يفصلوا الدين عن الدولة ، ثم اتبعوا فى إدارة الدولة الأساليب الحديثة التى اتبعها الغرب فى نظم الحكم ، والتى مكنت له من التقدم والرقى ، ولكنهم فصلوا الدين عن الدولة ، ثم ركنوا فى الحكم إلى أسلوب القوة ، الذى يملك القوة هو الذى يحكم ، فإذا تخلت القوة عنه فمصيره إلى السجن ، والشعوب مغلوبة على أمرها ترقص على كل طبول تدق لها ، ولكنها للأسف ترقص رقصة الطير الذبيح ، ولم تعد تعرف أى أعدائها بها أرحم ، أعداؤها من الخارج أم أعداؤها من الداخل ! .

ونتيجة هذا الفصل ، ونتيجة أسلوب الحكم هذا ، فإن الصراع فى داخل الدول الإسلامية صراع مستمر وعنيف فى نفس الوقت ، بقدر عنف تصارع القوى الداخلية فيما يريده كل فريق ، هذا الصراع بصورته التى تحتكم إلى القوة

كما يجرى حالياً ، إن لم يتوقف فإن الإسلام والمسلمين مقضى عليهم شاؤوا أم أبوا ، وتجارب التاريخ ماثلة أمامنا ، لماذا ؟

لأننا بهذا الأسلوب نفرش الطريق أمام أعدائنا بالورود ، ونقول لهم تفضلوا ها هى بلادنا وأعراضنا وأموالنا وعقائدنا أمامكم مباحة فاختاروا ماشئتم ، فنحن — تركة لرجل مريض — اقتسموها بينكم كيفما شئتم وبأى طريق أحببتم .

إننا بأسلوبنا فى الحكم هذا — أسلوب القوة — يقتل بعضنا بعضاً ، وينتقم بعضنا من بعض ، فإذا ما كانت المواجهة مع العدو الحقيقى ، لم نجد لنا قوة ، ولذلك فإننا نركع صاغرين — من انتصر منا ومن انهزم — ، لأنه بين أبناء الوطن الواحد والعقيدة الواحدة ، لايوجد منتصر ومنهزم ، إن الذين يجلسون على كراسى الحكم لن ينتصروا وشعوبهم مهزومة ، ولن يكونوا أحراراً وشعوبهم مكبلة ، إن قدرنا واحد — وهى حقيقة يغفلها كثير من الحكام — إما أن نموت معاً أو نعيش معاً ، وإما أن ننتصر معاً أو ننهزم معاً ، إما أن نكون جميعاً أحرار ، أو نعانى جميعاً من ذل العبودية .

من هنا ، ومن هنا فقط أقول إن الحل الإسلامى حتمى لكى يتمكن المسلمون من الحياة ، وبدون هذا الحل فالويل للمسلمين من أنفسهم أولا ، ثم الويل لهم من أعدائهم أخيراً ، الذين يقفون ليتنظروا نتيجة الصراع ، ثم ينقضوا على الفريسة ليلتهموها بعدما تنهد قواها .

إن عودة الدين الإسلامى إلى مركز التوجيه فى الدول الإسلامية بحيث تصبح الدولة قائمة على أمر الدين ، حافظة لحدود الله ، وتصبح الأمة آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر ، وتصبح السيادة فى الدولة الإسلامية لله وحده ، والسلطة للشعب بالمعنى الذى تحدثنا عنه سابقاً — أمر حتمى لكى ينتهى حكم

القوة فى الدولة الإسلامية ، وبذلك وحده ينتهى الصراع الداخلى وتصبح قوة المسلمين لهم وليست عليهم ، حينئذ وحينئذ فقط لن تكون أرض المسلمين فى كل مكان أرضاً مباحة لأعدائهم ، وحينئذ فقط لن تتبادل الدول الإسلامية العداء ولا الحروب ، ولا أقول لكم اجعلوها دولة إسلامية موحدة — وإن كنت أتمنى ذلك من صميم قلبى — ولكنى أقول لكم اجعلوها مائة دولة ، ولكن كل دولة تحكم داخلياً بشريعة الله كتاباً وسنة ، فسوف تكون فى النهاية كأنها دولة واحدة .

ولنتوقف أخيراً عند تجربة التاريخ ، لعلها تكون أجدى فى توضيح الصورة التى أتحدث عنها ، وليوقن من يساوره الشك فيما يقرأ ، أننى لا أبالغ فيما أعرض من فكر ، ولكنى فى داخلى أحس بحقيقة الخطر الذى يتهددنا جميعاً ، حكاماً ومحكومين . فالحل الإسلامى بالنسبة لنا ، ليس فقط مسألة عقيدة ودين ، ولكنه أيضاً مسألة حياة أو موت .

أولا : تجربة المسلمين فى أسبانيا النصرانية

٥٠ — تمهيـــد:

ليس هدفنا هنا أن نعرض تفصيلا لتاريخ المسلمين فى الأندلس ، فذلك أمر أكبر من الطاقة ، كما أنه ليس هدف هذا البحث ، فتاريخ المسلمين فى الأندلس تاريخ طويل بدأ منذ جهز موسى بن نصير جيشاً من المسلمين عدته سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد فى شهر رجب عام ٩٢ هـ (أبريل عام ٧١١ م) دخل به المسلمون الأندلس فى نفس العام .

وبقيت الأندلس فى قبضة المسلمين ثمانية قرون ، استطاع المسلمون خلالها أن يقيموا بها حضارة زاهرة وسط أوربا كلها ، وكما يقول المؤرخ لاين بول

فى مستهل كتابه « العرب فى أسبانيا : تقدمت بها (بالأندلس) الآداب والعلوم والفنون دون سائر الأقطار الأوربية الأخرى ، فهرع إليها الطلاب من فرنسا وألمانيا وانجلترا ليردوا مناهل العلم التى كانت تفيض على البلاد العربية دون غيرها ، كان جراحو الأندلس وأطباؤها من أبطال العلم ونوابغ الفنون ، ونبغت بقرطبة نسوة طيبات شجعن على المثابرة فى الدرس والتعمق فى البحث . ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفلكية والنباتية والتاريخ والفلسفة والتشريع إلا فى أسبانيا العربية ، ومهر العرب الأسبان فى الزراعة وطرق الرى الفنية ، وفى فن التحصين وبناء السفن وفى صناعة الغزل ، كذلك نبغوا فى فنون الحرب نبوغهم فى فنون السلام ، وبينما كانت أساطيلهم تنافس الفاطميين فى البحر إذا بجيوشهم تحمل النار والسيف إلى أمم النصرانية[1] .

هذه الحضارة التى استطاع المسلمون أن يقيموها فى الأندلس ، وهذا الزمن المديد الذى مكثوه فيها ، كان يمكن أن يمكّن لهم فى هذه الأرض ، ويبقى جذورهم فيها راسخة ، بل وكان يمكن لهم أن ينشروا الإسلام فى كافة بقاع أوربا ، لو أنهم استطاعوا أن يحتفظوا بوحدتهم كمسلمين ، وأن يقيموا نظاماً إسلامياً صحيحاً للحكم ، ولكن المسلمين تنازعوا بينهم الأمر ، وحمل كل منهم السلاح فى وجه أخيه ، وأصبح الحكم بينهم للقوة لا للقانون ، فكانت النتيجة أن مكنوا لأعدائهم من أنفسهم .

فلم يمض زمن طويل على فتح الأندلس ، حتى سقطت الدولة الأموية فى سنة ١٣٢ هـ ، وقامت الدولة العباسية على أنقاضها ، واستطاع عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام ابن عبد الملك . المسمى بعبد الرحمن الداخل . أن يفر إلى الأندلس ، وأن يحتفظ بالحكم الأموى بها ، وعندما أراد أبا جعفر المنصور

---

(١) محمد عبد الله عنان — تاريخ العرب فى أسبانيا ص ٢١٢ (سنة ١٩٢٤م) .

أن ينشر ظلال الدولة العباسية على الأندلس وبعث إليها بجيش فى سنة ١٤٦هـ (٧٦٣ م) مكون من سبعة آلاف مقاتل ، عبر البحر ونزل بباجه داعياً لأبى جعفر المنصور ، استطاع عبد الرحمن الداخل أن يهزم الجيش العباسى وأن يقتل قائده . وهكذا انفصلت الأندلس عن الدولة الإسلامية الأم ، كانت هذه واحدة من أكبر الأسباب التى أدت فى النهاية إلى اندحار المسلمين فى الأندلس، حقيقة أن المسلمين استطاعوا أن يمكثوا قروناً طويلة بعدها وأن يشيدوا حضارة، ولكن الأخطاء الإنسانية ربما لا تتضح نتائجها إلا بعد قرون طويلة من وقوع الخطأ نفسه ، وكانت بداية خطأ الأخطاء فى تاريخ المسلمين كله ، هو قيام الحكم على أساس العصبية ، وهجر مبادىء الدين الإسلامى التى وضعها لتنظيم الحكم فى أمة المسلمين .

وما بدأه الأمويون على يد عاهلهم معـــاوية بن أبى سفيان فى الدولة الإسلامية الأم ، من إنهاء نظام الخلافة الإسلامى ، وقيام الأمر على أساس العصبية الأسرية ، نقلوه أيضاً إلى الأندلس ، وماذا كانت النتيجة . أن ثارت الخلافات بين المسلمين أنفسهم ، وأصبح تاريخ الحكام وصراعاتهم يأكل فى النهاية حضارة الإسلام التى يشيدها الشعب المسلم ، فإذا جاء حاكم قوى استطاع أن يخضع الأعداء سواء من المسلمين فى الداخل ، أو من المسيحيين سواء فى داخل الأندلس أو فيما يجاورها ، وإذا ما ضعف الحكم ، وثب عليه أعداؤه من كل جانب ، وأحياناً كان بعض المسلمين يستعينون على بعضهم الآخر بقواد المسلمين وقواتهم ، وبهذا التفتت الداخلى ، الذى أدى إليه حكم القوة فى داخل الأندلس ، وبانفصال المسلمين فى الشرق عن المسلمين فى المغرب ، مضى التحلل يسير فى أطراف الدولة الإسلامية سواء هنا أم هناك وجمع الأعداء شملهم من جديد ، وأصبحت لهم اليد الطولى على المسلمين ، فماذا كانت النتيجة . هى نفس النتيجة الذى حذر منها القرآن الكريم المسلمين فى قوله تعالى : « إنهم إن

يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً » . ولنرى من واقع التاريخ .

٥١ — التنصير والاضطهاد :

فى فجر القرن السادس عشر ، ولم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة إلى أسبانيا النصرانية[١] ، حتى بدت نيات السياسة الأسبانية واضحة نحو المسلمين وكانت الكنيسة تحاول خلال ذلك أن تعمل على تحقيق غايتها لتنصير المسلمين وذلك بالوعظ والارشاد ومختلف وسائل التأثير المادية ، ولكن هذه السياسة لم تسفر عن نتائج تذكر . فلجأت الكنيسة بعد ذلك إلى سياسة العنف ، والمطاردة وأذعنت السياسة الأسبانية لوحى الكنيسة ، ولم تذكر ما قطعت من عهود مؤكدة للمسلمين على احترام دينهم وشعائرهم .

وكان روح هذه السياسة حبران كبيران هما الكردينال خمنيس مطران طيطلة ، ورأس الكنيسة الأسبانية ، والدون ديجوديسان المحقق العام لديوان التحقيق .

ولم يقف الكردينال خمنيس عند تنظيم هذه الحركة الإرهابية ، التى انتهت بتوقيع التنصير المغصوب على عشرات الألوف من المسلمين ، ولكنه قرنها بعمل شائن . إذ أمر بجمع كل ما يستطاع من الكتب العربية من أهالى غرناطة وأرباضها ، ونظمت أكداساً هائلة فى أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف وآلاف من كتب الآداب والعلوم ، وأشعلت النيران فيها جميعاً ، ولم يستثنى منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم ، وهكذا ذهبت عشرات الألوف من خلاصة ما بقى من تراث الفكر الاسلامى فى

---

(١) تم تسليم غرناطة فى سنة ٨٩٧ هـ / أول يناير ١٤٩٢م . واتخذت أسبانيا من هذا اليوم عيدا قوميا تحتفل به فى كل عام .

الأندلس ، ضحية هذا الإجراء الهمجى ، ليس على يد همجى جاهل ، وإنما على يد حبر مثقف، وليس فى ظلام العصور الوسطى ، وإنما فى فجر القرن السادس عشر[١] .

وقد قام ديوان التحقيق الأسبانى بدور فعال فى الإجهاز على البقية الباقية ممن يشتبه فى تنصرهم من المسلمين الذين أجبروا على ترك دينهم،وديوان التحقيق أنشىء فى الأصل لمطاردة الكفر وحماية الكثلكة من شبهة المروق والزيغ . وقد صدر المرسوم البابوى فى سنة ١٤٧٨ م بالتصريح بإنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة ، واتخذت الخطوة الحاسمة لتنفيذ المرسوم فى سبتمبر ١٤٨٠م ، حيث ندب المحققون الثلاثة ، وأنشئت محكمة التحقيق الأولى فى أشبيليه ، وكان يبلغ من عسف الديوان أحيانا أن يبسط حكم الإرهاب فى بعض المناطق بالكامل ، وهذا ما حدث فى قرطبة على يد المحقق العام لوسيرو ، الذى يعتبر من أشد المحققين قسوة وإجراما ، ففى عهده ذاعت جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات ، وتعالت الصيحة بالشكوى من هذا العدوان الفظيع الذى يجرى باسم الديوان المقدس .

وقد نقل إلينا الدون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الأسبانى ، وثيقة من أغرب الوثائق القضائية ، تضمنت طائفة من القواعد والأصول التى رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين فى تهمة الكفر والمروق .

« يعتبر الموريسكى — العربى المتنصر — قد عاد إلى الإسلام إذا امتدح دين محمد ، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلها ، وليس إلا رسولا ، أو أن صفات العذراء أو إسمها لا تناسب أمه ، ويجب على كل نصرانى أن يبلغ عن

---

(١) محمد عبد الله عنان — نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص ٢٩٨ (سنة ١٩٥٨م) .

ذلك ، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد سمع أو رأى بأن أحدا من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية ، ومنها أن يأكل اللحم فى يوم الجمعة ، وهو يعتقد أن ذلك مباح ، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثيابا أنظف من ثيابه العادية ، أو يستقبل المشرق قائلا باسم الله ، أو يوثق أرجل الماشية عند ذبحها ، أو يرفض أكل التى لم تذبح أو ذبحتها إمرأة ، أو يختن أولاده ، أو يسميهم بأسماء عربية ، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا فى الله وفى رسوله محمد ، أو يقسم بأيمان القرآن ، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو المشرق ، ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن ، أو أن يتزوج طبقا لرسوم الشريعة الإسلامية ، أو ينشد الأغانى العربية أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية ، أو أن يستعمل النساء الخضاب فى أيديهن أو شعورهن ، أو يغسل الموتى ويكفنهم فى أثواب جديدة ، أو يدفنهم فى أرض بكر ، أو يغطى قبورهم بالأغصان الخضراء ، أو يستغيث بمحمد وقت الحاجة ناعتا إياه بالنبى وبرسول الله ، أو يقول إن الكعبة أول معابد الله ، أو يقول إنه لم ينصر إيمانا بالدين المقدس ، أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين[1] . .

وتوالت القوانين والأوامر المرهقة ، بهدف محو كل أثر من آثار الإسلام فى الأندلس ، ولعل قانونا واحدا من هـــذه القوانين يرينا صورة العسف والإضطهاد والإذلال الذى لاقاه المسلمون من أعدائهم ، حين أصبحت القوة فى يد هؤلاء الأعداء .

ففى أول يناير سنة ١٥٦٧ م وهو اليوم الذى سقطت فيه غرناطة ،

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٨ — ٣٢٩

واتخذته أسبانيا عيداً قومياً تحتفل به فى كل عام ، صدر هذا القانون الذى يقضى بما يلى :

يمنح الوريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية ، ثم لا يسمح لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ بالعربية أو يتخاطب بها ، سواء بصفة عامة أو بصفة خاصة ، وكل معاملات أو عقود تجرى بالعربية تكون باطلة ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره ، ويجب جمع الكتب العربية من أية مادة فى ظرف ثلاثين يوما ، إلى رئيس المجلس الملكى فى غرناطة ، لتفحص وتقرأ ، ثم يرد غير الممنوع منها إلى أصحابها لتحفظ لديهم مدى الأعوام الثلاثة فقط .

وأما الثياب فيمنع أن يصنع منها أى جديد ، مما كان يستعمل أيام المسلمين ولا يصنع منها إلا ما كان مطابقا لأزياء النصارى ، وحتى لا يتلف ما كان منها من زى المسلمين ، فإنه يسمح بارتداء الثياب الحريرية منها لمدة عام ، والصوفية لمدة عامين ، ثم لا يسمح باستعمالها بعد ذلك ، ويحظر التحجب على النساء الموريسكيات ، وعليهن أن يكشفن وجوههن ، وأن يرتدين عند الخروج المعاطف والقبعات ، ويحظر فى الحفلات إجراء أية رسوم إسلامية ، ويجب أن تفتح المنازل أثناء الحفلات ، وفى أيام الجمع والأعياد ، ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة ، ويحرم إنشاد الأغانى القومية ، ولا يشهر الزمر « الرقص العربى » أو ليالى الطرب بالآلات ، أو غيرها من العوائد الموريسكية ، ويحرم الخضاب بالحناء ، ولا يسمح بالاستحمام فى الحمامات ، ويجب أن تهدم سائر الحمامات العامة والخاصة ، ويحرم إستعمال الأسماء والألقاب العربية ، ومن يحملها يجب أن يبادر بتركها ، ويجب أخيراً على الموريسكين الذين يستخدمون العبيد السود أن يقدموا رخصهم

باستخدامهم للنظر فيما إذا كان حريا بأن يسمح لهم باستبقائهم[١] .

وقد فرضت على المخالفين عقوبات فادحة ، تختلف من السجن إلى النفى إلى الإعدام ، وكان إحراز الكتب والأوراق العربية ولا سيما القرآن ، يعتبر فى نظر السلطات من أقوى الأدلة على الردة ، ويعرض المتهم لأقسى أنواع العذاب والعقاب .

٥٢ — الطرد والنفى :

ورغم كل هذه الخطوات التى اتبعتها أسبانيا للتخلص من كل آثار الحضارة الإسلامية على أرضها ، والقضاء على الدين الإسلامى نهائياً ، وعلى كل ما يقرب اليه من عادات عربية ، أو لغة أو ثقافة . ورغم الدور البربرى الذى قام به ديوان التحقيق ، بالرغم من كل ذلك فإن أسبانيا النصرانية لم تطمئن ، أبداً الى الموريسكيين العرب المنتصرين .

وبقيت تتوجس منهم خيفة ، لعلمها أن هؤلاء أجبروا إجباراً على ترك دينهم وإن كانوا يسايرون الطقوس النصرانية إلا أنهم فى أعماقهم مسلمون ، وأنهم على صلة مستمرة بأخواتهم فى المغرب .

وبدأت منذ أواخر عصر فيليب الثانى ، إتخاذ الخطوات الفعالة للقضاء عليهم ، فوضعت مشروعاً فى سنة ١٥٨٢ م لنفيهم ، ولكن المشروع لم ينفذ ، ومات فيليب الثانى سنة ١٥٩٨ م وجاء بعده فيليب الثالث ، وتضاربت مشروعات التخلص من الموريسكيين ، بين النفى أو الإبادة أو الاسترقاق ، حتى أعلن قرار النفى النهائى فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩م للموريسكيين أوالعرب المنتصرين . وهذه هى نصوص القرار .

---

(١) المرجع السابق ٣٤٢ — ٣٤٣

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين واتصالهم بأعداء أسبانيا وإخفاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأى الملك من نفيهم جميعاً إلى بلاد البربر « المغرب » . وبناء على ذلك فإنه يجب على جميع الموريسكيين من الجنسين أن يرحلوا مع أولادهم ، فى ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى إلى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ، وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم إلى بلاد المغرب .

وسوف تتكفل الحكومة بإطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن ، وأنه يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الأيام الثلاثة فى أماكنهم رهن إشارة المأمورين ، ومن وجد متجولا بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الإعدام فى حالة المقاومة ، وقد منح الملك السادة كل الأملاك العقارية والأمتعة الشخصية التى لم تحمل ، فإذا عمد أحد إلى إخفاء الأمتعة أو دفنها ، أو أضرم النار فى المنازل والمحاصيل ، عوقب جميع سكان الناحية بالموت .

ونص القرار على استبقاء ٦٠/ فقط من الموريسكيين للإنتفاع بهم فى صون المنازل ، والعناية بمعامل السكر ومحصول الأرز ، وتنظيم الرى وإرشاد السكان الجدد .

وهؤلاء يختارهم السادة من بين الأسر الأكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية ، أما الأطفال فإذا كانوا دون الرابعة فإنه يسمح لهم بالبقاء إذا شاءوا ورضى آباؤهم أو أولياؤهم ، وإذا كانوا دون السادسة ، سمح لهم بالبقاء إذا كانوا من أبناء النصارى القدامى (من غير العرب المتنصرين) وسمح كذلك بالبقاء لأمهم الموريسكية ، فإذا كان الأب موريسكيا والأم نصرانية أصيلة ، نفى الأب وبقى الأولاد مع أمهم ، كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين

النصارى مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » ، إذا زكاهم القسس . وحظر القرار إخفاء الهاربين أو حمايتهم ، ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ستة أعوام[1]

أعلن هذا القرار أولا فى قشتالة فى سنة ١٦٠٩ م ، أما فى غرناطة فقد أعلن فى سنة ١٦١٠ ثم توالى إعلانه فى سائر أنحاء المملكة الأسبانية . ونفذ القرار فى كل مكان بصرامة ووحشية ، واستمرت السفن شهوراً بل أعواماً ، تحمل اكداساً من تلك الكتل البشرية المعذبة ، فتلقى بها هنا وهناك فى مختلف الثغور الأفريقية .

وهكذا أسدل الستار على مأساة الإسلام والمسلمين فى الأندلس وياليت المسلمين استفادوا شيئاً من هذه التجربة المريرة .

* * *

ثانيا : تجربة المسلمين مع روسيا البلشفية

٥٣ — تمهيـــد :

معظم الأقاليم التى يتكون منها الاتحاد السوفيتى اليـــوم ، كانت أقاليماً إسلامية ، وتشمل : الأورال — إسترخان — سيبريا — القرم — القوقاز — التركستان .

وقد دخل الإسلام القوقاز بعد سنين قليلة من دخوله مصر ، وفى عهد الأمويين انتشر إنتشاراً كبيراً فى التركستان ، ولعل نظرة سريعة على بعض العلماء والفقهاء الذين أنجبتهم هذه المناطق لتعطينا فكرة عن مدى تغلغل الإسلام فيها ، واختلاطه بنفوس أهلها .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧٩ — ٣٨٠

فمنهم أئمة فى كتب الحديث كالبخارى صاحب الصحيح المشهور ، والترمذى والنسائى ، ومنهم أئمة فى كتب التفسير كالزمخشرى والنسفى ، ومنهم أئمة فى البلاغة وإعجاز القرآن « عبد القاهر الجرجانى » و « سعد الدين التفتزانى » و « يوسف السكاكى » .

ومنهم أئمة فى الفلسفة الإسلامية كالفرابى ، وابن سينا ، وأينما وليت وجهك ستجد أعلاماً منهم ، خدموا الإسلام ، وأضافوا إلى الحضارة الإسلامية بل وللوجود الإسلامى نفسه الكثير ، الخوارزمى ، شمس الدين السرخسى ، الماتريدى ، وغيرهم كثير .

وقد تعرضت هذه الولايات الإسلامية لعدة أخطار متتالية ، كان أولها الخطر المغولى وذلك عندما استطاع جنكيزخان وإبنه اجـــدادى فيما بين ١٢٠٦/١٢٤١ م أن يجتاح بلاداً تبدأ عند سواحل الصين الشرقية ولا تنتهى إلا شمالى البحر الأسود فى أوربا ، وأزالت جحافل المغول دولا كبرى فى الصين ووسط آسيا وشرقى أوربا ، وفى سنة ١٢١٨ اجتاحت جحافل المغول خوارزم وأزالت السلطنة الإسلامية بها ، وفيما بين سنتى ١٢١٩ ، ١٢٢١ استولى المغول على بلاد التركستان ، أى ما وراء النهر وخربوا عواصم الإسلام هناك مثل بخارى وسمرقند وطشقند .

وقد هدأت العاصفة المغولية بعد وفاة جنكيزخان فى سنة ١٢٢٧ م ، وقسمت الامبراطورية المغولية بين ولديه شفتاى وأجدادى ، وآل الجزء الأوسط من الامبراطورية — وهو الذى يشمل بلاد التركستان وإيران إلى شفتاى . وقد تأثر هو وأبناؤه بالإسلام وخفت حدة غاراته على بلاده[1] .

---

(١) د حسين مؤنس — عالم الاسلام ص ٩١ (سنة ١٩٧٣)

ثم أتى الخطر الصليبي ليهدد هذه الولايات الإسلامية مرة أخرى ممثلا فى روسيا القيصرية ، التى استطاعت أن تخضع سيبريا لسلطانها فى القرن السابع عشر بعد حرب دامت أكثر من نصف قرن ، ومنذ بداية القـــرن التاسع عشر والروس فى إحتكاك مستمر بحكام الأقاليم الإسلامية ، وفى سنة ١٨٦٨ هزم أمير بخارى وأكره على التخلى عن سمرقند ، وفى سنة ١٨٧٢ ضمت خوارزم إلى امبراطورية القيصر ، كما ضمت خواقند بدورها سنة ١٨٧٦ ، وما أن أتى عام ١٨٨٤ حتى كان مركز روسيا قد استوى فى آسيا الوسطى ، وأصبحت كل هذه الأقاليم تحت سيطرتها[١] .

وبديهى أن المسلمين دافعوا عن بلادهم دفاعاً مجيداً ، ولم تسقط هذه الأقاليم إلا على جثث مئات الآلاف من أبطال المسلمين ، الذين أبلوا بلاء حسناً ، اعترف به الأعداء أنفسهم ، والمؤرخ الروسى « فادييف » لم يتردد بالقول بأن الحرب فى شمال القوقاز شلت الجزء الأكبر من الجيوش الروسية بعض الوقت ، وأنه لولا الحـــرب القوقازية التى عاقت تقدم الروس ، لاستطاعت الجيوش الروسية أن تحتل الشرق بأجمعه من مصر إلى اليابان .

ورغم هذه الهزائم التى حاقت بالمسلمين فى هذه الأقاليم فقد بقوا — إلى حدما — متحاكمين إلى شرائعهم ، متمسكين بعقائدهم ، رغم عسف القياصرة بهم ، واضطهادهم إياهم حتى قامت الثورة البلشفية فى سنة ١٩١٧

٥٤ — الثورة البلشفية ونداء إلى المسلمين :

لم يكد البلاشفة يستولون على السلطة ، والأرض ما زالت تهتز تحت

---

(١) كارل بروكلمان — تاريخ الشعوب الاسلامية — ترجمة نبيـــه أمين — منير البعلبكى ص ٦٦٩ — ٦٧٠ — (بيروت سنة ١٩٦٨) .

أقدامهم ، حتى وجهوا أنفسهم شطر مسلمى الاتحاد السوفيتى ، يلتمسون منهم العون ، فمن الطبيعى أنهم ما داموا قد اضطهدوا وظلموا فى عهد القياصرة ، وانتهكت حرماتهم ومساجدهم ، أن يمدوا أيديهم إلى القادمين الجدد أملا فى حياة أفضل ، وفى ٧ ديسمبر ١٩١٧ وبعد شهر واحد من إستيلاء البلاشفة على السلطة ، وجه مجلس قومى الشعب البلشفى نداء إلى شعوب روسيا من المسلمين جاء فيه .

« إن امبراطورية السلب والعنف والرأسمالية توشك أن تنهار ، والأرض التى تستند عليها أقدام اللصوص الاستعماريين تشتعل ناراً .

وفى وجه هذه الأحداث الجسام نتجه بأنظارنا إليكم أنتم يا مسلمى روسيا والشرق ، أنتم يا من تشقون وتكدحون ، وعلى الرغم من ذلك تحرمون من كل حق أنتم له أهل .

أيها المسلمون فى روسيا . .
أيها التتر على شواطىء الفولجا وفى القرم .
أيها الكرنميز والسارتيون فى سيبريا والتركستان .
أيها التتر والأتراك فى القوقاز .
أيها التشيشيين . . أيها الجبليون فى أنحاء القوقاز .

أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم ، وقبوركم ، واعتدى على عقائدكم وعاداتكم ، وداس القياصرة والطغاه الروس على مقدساتكم .

ستكون حرية عقائدكم ، وعاداتكم ، وحرية نظمكم القومية ، ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم ، لا يطغى عليها طاغ ولا يعتدى عليها معتد .. !

هبوا إذا فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم ، فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تشتهون حائل . !! إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين .

واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسى ، تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة وبكل ما يتوافر لها من وسائل ، جند أشداء ، ومجالس للعمال ، ومندوبين عن الفلاحين ، وإذن فشدوا أزر هذه الثورة ، وخذوا بساعد حكومتها الشرعية .

أيها الرفاق ! أيها الأخوة .

لنتقدم سويا فى عزم وصلابة نحو سلم عادل ديمقراطى .

إن رايتنا تحمل معها الحرية للشعوب المظلومة فى أرجاء العالم .

أيها المسلمون فى روسيا ..

أيها المسلمون فى الشرق .

إننا ونحن نسير فى الطريق الذى يؤدى بالعالم إلى بعث جديد ، نتطلع إليكم لنلتمس عندكم العطف والعون »[٢] .

ولم تضيع الشعوب الإسلامية فى روسيا هذه الفرصة المواتية ، إذ سرعان ما جاشت المشاعر الإسلامية من سيبيريا إلى القرم . وتكونت جمهوريات إسلامية عديدة فى هذه الأقطار المترامية ، واعترفت الدول المجاورة بهذه الحكومات ، وعقدت معها المعاهدات .

٥٥ — المواجهة مع الثورة البلشفية .

ولكن حلم المسلمين فى روسيا بالعدالة والأخوة وحرية الإعتقاد لم يدم

---

(١) عن كتاب الشيخ محمد الغزالى ـ الاسلام فى وجه الزحف الأحمر ص ١٢٢ (سنة ١٩٧٦) .

طويلا ، وما كان له أن يدوم رغم أية نداءات أو بيانات يصدرها الثوار ، فلم يكن النداء إلا إلى أن تستقر لهم الأمور ، وتتاح لهم القوة التى يخضعون بها أعداءهم ، والتناقض حاد بين قوم لا يؤمنون بالله ولا يعترفون له بوجود . وبين قوم لا يؤمنون إلا بالله ، ولا يدينون إلا له . ولا يحنون رؤوسهم إلا أمامه .

وفى أبريل سنة ١٩١٨ أصدر « لينين » أمرا بالزحف على البلاد الإسلامية ، فأخذت الدبابات تحصد المدن حصدا ، والطائرات تحصد الأرواح دون تمييز بين مدنيين وعسكريين ، وفى نهاية العام كان الروس قد استولوا على جمهورية « إيديل أورال » ، وشمال القوقاز ، وحكومة « خوقند » فى تركستان ، وتأخر الإستيلاء على شبه جزيرة القرم لعنف مقاومتها .

وفى سنة ١٩١٩ استولت روسيا على جمهورية « ألاش أوردو » وفى أبريل سنة ١٩٢٠ انتهت من احتـــلال القرم ، ثم استأنفت الهجوم على جمهورية « اذربيجان » واستطاعت إخضاعها ، ثم حاصرت جمهورية « خيوه » من ثلاث جهات ، فدافع عنها أهلها من التركمان دفاع المستميت ، ولكنها سقطت فى نهاية عام ١٩٢٠ .

وفى سنة ١٩٢١ استأنف الروس هجومهم على جمهورية « بخارى » ، ودار بينهم وبين أهلها قتال عنيف ، ودافع أهلها عنها دفاع الأبطال ، ولما انهزمت جيوشهم ، استمرت حرب العصابات بها قرابة عشر سنين .

وما حدث بعد ذلك هو الذى يوضح لنا أبعاد الصراع الحقيقية بين الإسلام والشيوعية ، وسوف نجد أن الصورة التى حدثت فى ولايات الاتحاد السوفيتى الإسلامية ، لا تختلف كثيراً عن الصورة التى حدثت من قبل فى أسبانيا النصرانية .

فقد شرع البلاشفة فى تغيير خريطة هذه الولايات الإسلامية من الناحية السكانية ، ومن الناحية الحضارية أيضاً لمحو كل أثر للإسلام بها . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف لم يبال الشيوعيون أى طريق يسلكون مع المسلمين ، وليس فى ذلك أى غرابة لمن علم طبيعة العقيدة التى يدينون بها . ولعل ماحدث فى شبه جزيرة القرم يكون نموذجا لما اتبعه الشيوعيون مع سائر الولايات الإسلامية الأخرى .

فقدم كان سكان شبه الجزيرة عندما قامت الثورة البلشفية يبلغون خمسة ملايين نسمة من المسلمين . وبعد استيلاء البلاشفة على السلطة ، استطاعوا الظفر باستقلالهم ، وعقد مؤتمر وطنى منتخب تمكن من وضع دستور للحكم .

ولكن سرعان ما وجهت روسيا الشيوعية جيشها للقضاء عليهم ولما قاوم مسلمو القرم العدوان ، واعتصم الجيش بالجبال ، ورأى الروس أن أمد المقاومة سيطول لجأوا إلى حرب التجويع ، فنقلوا مافى الجزيرة من أقوات وتركوا سكانها للضياع ! .

واشتدت المحنة بأهلها حتى لقد قيل بأن بعض الأشخاص أكلوا أولادهم .

وقد نشرت جريدة « أزفستيا » فى عددها الصادر فى ١٥ يوليو سنة ١٩٢٢ تقريرا للرفيق « كالينين » عن مجاعة القرم جاء فيه :

« بلغ عدد الذين أصابهم محنة الجوع فى شهر يناير « ٣٠٢٠٠٠ » مات منهم « ١٤٤١٣ » وارتفع عددهم فى شهر مارس إلى « ٣٧٩٠٠٠ » مات منهم « ١٩٩٠٢ » وبلغ فى أبريل « ٣٧٧٠٠٠ » مات منهم « ١٢٧٥٤ » وفى شهر يونيه بلغ ٣٩٢٠٧٢ . ولم يذكر عدد الموتى . ولكنه قال : إن أكل لحم الإنسان لم يكن من الحوادث التى يستغرب لها ، أو تبدو عجيبة فى بابها .

وبعدما استولى الروس على القرم ، جردوا المسلمين من أملاكهم ، وشرعوا يهدمون المساجد والمعاهد الدينية فلم يعدمن ١٥٥٨ مسجدا إلى أعدادا قليلة .

ثم صدرت الأوامر بنقل سكان القرم إلى قطر آخر ، أو تشريدهم فى أقطار عديدة ، وإحلال الروس محلهم ، حتى تنقطع كل صلة لهم بتاريخهم ودينهم وتراثهم . وقد كان سكان القرم خمسة ملايين مسلم فى سنة ١٩١٧ . فأصبحوا « ٤٠٠٠٠٠ » فى سنة ١٩٤٠ . أى أقل من عشر السكان .

وقد لخص الشيخ محمد عبد اللطيف دراز . وكيل الجامع الأزهر السابق فى شكواه التى تقدم بها بالاتفاق مع نفر من مهاجرى الولايات الإسلامية التى استولى عليها البلاشفة ، إلى «مستر تريجفلى» سكرتير الأمم المتحدة وقتئذ ، الطرق التى اتبعها الشيوعيون فى معاملة شعوب الولايات التى أخضعوها فيما يلى :

* الإبادة الجماعية أو نفى جزء من الشعب أو الشعب كله من وطن آبائه وأجداده ، إلى سيبيريا أو إلى مناطق أخرى حيث يفقدون الصلة بوطنهم الأصلى ويضيعون بمرور الزمن . واستدل على ذلك بوقائع محددة من سياسات البلاشفة .

* هـــدم المساجد وتحويلها إلى دور للهو واستخدامها فى غايات أخرى ، وإقفال المدارس الدينية . واستدل على ذلك بوقائع محددة منها هدم ٦٦٨٢ مسجداً فى التركستان وحدها وتحويل بعضها إلى أغراض أخرى ، وبلغ عدد المدارس والكتاتيب التى أقفلوها فى التركستان ٧٠٥٢ .

* قتل رجال الدين أو نفيهم ، أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة ، أو منعهم من الحقوق السياسية ، بل والحقوق الإنسانية ، وإيجاد أية عقبة أخرى تحول بينهم وبين مزاولتهم لمهنتهم . واستدلت الشكوى على ذلك بوقائع محددة .

• قتل الزعماء السياسيين أو نفيهم من أمثال ذلك أن الشيوعيين قتلوا فى التركستان الشرقية سنة ١٩١٤ الحاج خوجه نياز ، رئيس الجمهورية ، ومولانا « ثابت » رئيس الوزراء ، وفى القرم قتلوا سنة ١٩٢٨ « ولى ابراهيم » رئيس الجمهورية مع جميع وزرائه ، وغير هؤلاء كثير ممن عددتهم الشكوى .

• منع المسلمين من التمتع بالنظم الإسلامية فى دائرة الأحوال الشخصية ، فقد ألغيت المحاكم الشرعية فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى ، وفى يوغسلافيا نشرت جريدة Novodobe الصادرة فى سراييفو بتاريخ ٢٢ مارس سنة١٩٤٦ قانوناً بإلغاء المحاكم الشرعية فى جميع أنحاء يوغوسلافيا . ومعنى ذلك خروج الأسرة الإسلامية من دائرة توجيه الشريعة الإسلامية ، إلى دائرة القوانين الشيوعية التى تنادى بالإباحية التامة وبانحلال الروابط الطبيعية بين أعضاء الأسرة الواحدة .

هذا إلى جانب نهب البلاد الاسلامية ونقل ثروتها الى مقاطعات أخرى وتمزيق أوصال كل بلد إسلامى واحد وخلق قوميات مستقلة على أساس لهجات لغة واحدة بقصد تشتيت المسلمين من نفس الجنس واللغة وخلق منازعات مصطنعة بينهم ، كما قسموا تركستان الى ستة جمهوريات على هذا الأساس الواهى [١] .

هل اختلفت الصورة كثيراً عما حدث مع المسلمين فى أسبانيا النصرانية .

لاأعتقد ... !!

---

(١) راجع التفصيلات فى الشيخ محمد الغزالى — المرجع السابق ص ١٠٧ وما بعدها .

ثالثا : تجربة المسلمين مع اليهودية العالمية فى فلسطين

٥٦ — تمهيد :

لم تبعد بعد قضية المواجهة مع اليهودية العالمية فى فلسطين عن أذهان المسلمين كما بعدت غيرها من القضايا ، فما زال المسلمون يعيشون هذه المواجهة ، أو هذه المأساة ، ومازال أمامهم زمن طويل يواجهون فيه مأساتهم مع أنفسهم أولا ، ثم مأساتهم مع اليهودية العالمية ، ولا نصر لهم على عدوهم إلا إذا انتصروا على أنفسهم أولا .

ولم يكن ضياع فلسطين ، واستيلاء اليهود النازحين من كل أقطار الأرض عليها ، وانتزاعها من أيدى المسلمين ، منقطع الصلة بالظروف التى عاشتها البلاد الإسلامية فى الحقبة الأخيرة من الزمان ، هذه الظروف التى أدت إلى ضعف الخلافة العثمانية عندما بعدت هذه الخلافة عن روح الدين الإسلامى ، وتحولت إلى نوع من الاستعمار التركى للشعوب الإسلامية الأخرى ، فأدى ذلك بها إلى تخلف الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة والتقدم ، وضعف هذه الشعوب ، وضعف الخلافة العثمانية نفسها ، وكان ما رأيناه من قبل من تمكن روسيا القيصرية من الشعوب الإسلامية فى أواسط آسيا وبسط سلطانها عليهم ، ثم بدأت أوربا تحاول أن تبسط سلطانها على أقطار العالم الإسلامى المختلفة .

فى سنة ١٧٩٨ م . غزا نابليون مصر ، وفى سنة ١٨٣٠ م . احتلت فرنسا الجزائر ، وفى سنة ١٨٣٩ م . احتلت بريطانيا عدن ، وفى سنة ١٨٤٢م قبل الخليفة مقترحات الدول الغربية حول إدارة الحكم فى لبنان ، وفى سنة ١٨٦٠ م احتلت فرنسا لبنان ، وفى سنة ١٨٧٨م . تنازل الخليفة عن إدارة جزيرة قبرص للإنجليز ، وفى سنة ١٨٨١م . احتلت فرنسا تونس ، وفى سنة ١٨٨٢م احتل الانجليز مصر ، وبدأت السيطرة البريطانية على مسقط والبحرين والكويت ، وفى سنة ١٩٠٤ م . وقعت بريطانيا وفرنسا معاهدة بينهما

تقضى بإطلاق يد بريطانيا فى مصر والسودان . فى مقابل إطلاق يد فرنسا فى المغرب العربى .

وفى سنة ١٩١١ م . سقطت ليبيا فى يد الإيطاليين ، وفى سنة ١٩١٢م ، احتلت فرنسا المغرب . وفى سنة ١٩١٦ م . وقعت معاهدة سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا لاقتسام بلاد المسلمين التى كانت تابعة للخلافة ، وفى سنة ١٩١٨م . انهزمت تركيا وسقطت الخلافة الاسلامية ، واحتل الانجليز فلسطين.

كانت هذه هى المقدمات التى أدت إلى ضياع فلسطين ، وفى هذه الظروف صدر وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا . فى نوفمبر ١٩١٧ م . وجاء فيه « تنظر حكومة جلالة الملك بعين العطف إلى إقامة وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى ، وسوف تبذل أفضل الجهود لتسهيل بلوغ هذه الغاية » .

وفى ٢٥ نوفمبر ١٩٢٠ م . أقر مجلس الحلفاء الأعلى المنعقد فى سان ريمو مشروع صك الانتداب البريطانى على فلسطين نتيجة مساعى اليهود . وتضمن صك الانتداب النقاط المهمة التالية :

— أن توضع فلسطين فى ظروف إدارية وسياسية واقتصادية يضمن معها تأسيس الوطن القومى اليهودى ، وأن تشجع حكومة الانتداب الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإسكان اليهود فى الأراضى الفلسطينية ، وأن تعتمد الحكومة تشكيل وكالة يهودية ترعى شئون اليهود فى فلسطين وفى أنحاء العالم ، وتشرف على بناء الوطن القومى اليهودى ، وأن تفضل الوكالة اليهودية عند منح امتيازات المشاريع لاستثمار الثروة الطبيعية فى فلسطين[1] .

وقد أقرت عصبة الأمم هذا المشروع اليهودى للانتداب البريطانى فى شهر يوليو سنة ١٩٢٢ .

---

(١) راجع عبد الله التل — خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية ص ٢٤٠ (سنة ١٩٦٥) .

٥٧ — خطوات على طريق التهويد :

وقد قامت بريطانيا بمهمتها فى فلسطين خير قيام ، ومكنت لليهود ، وهيأت لهم كافة الظروف لإقامة وطنهم فى فلسطين ، على أشلاء أبنائها الأصليين . ولعـــل هذه الحقائق توضح لنا الدور الذى قامت به بريطانيا لإقامة دولة إسرائيل .

١ — فتحت أبواب فلسطين لليهود النازحين من كل أقطار العالم . فأصبح عددهم فى فلسطين يزيد عن ٦٠٠ ألف سنة ١٩٤٨ ، بينما كانوا حوالى ٥٠ ألفاً فى عام ١٩١٨ .

٢ — سمحت للوكالة اليهودية برياسة حايم وايزمان أن تشرف على كل ما يتعلق باليهود من أمور سياسية واقتصادية وتعليمية وصحية وعسكرية ، فأصبحت الوكالة اليهودية بذلك حكومة داخل حكومة الانتداب ، بينما حرمت على العرب أن يكون لهم رأى فى هذه الأمور التى تتعلق بهم مباشرة ، وحصرت مسئولية الاشراف عليها فى موظفين إنجليز ويهود .

٣ — أقطعت اليهود أجزاء كبيرة من أرض فلسطين ، فأنشأوا عليها المستعمرات بأموال انجليزية وأمريكية .

٤ — زود الانجليز اليهود بالأسلحة والمعدات الحربية ودربوهم على استعمال السلاح ، فتحولوا الى عصابات تسفك دماء أبناء فلسطين العربية .

٥ — منحوا اليهود الامتيازات لاستغلال المياه العربية وتأسيس المصانع وتنمية مواردهم الاقتصادية ، على حساب أبناء البلد الأصليين ، وفرضوا الرسوم الجمركية على الواردات حماية للصناعة اليهودية .

٦ — جندوا جميع قواتهم وإمكانياتهم العسكرية لإخماد ثورة عرب فلسطين التى أعلنوها منذ سنة ١٩٣٦ ، احتجاجاً على سياسة تهويد فلسطين ، ثم خدعوا الحكومات العربية فتوسطت لإيقاف الثورة على أمل إيجاد حل

يرضى عرب فلسطين . فى حين أنها لم تكن تهدف إلا إلى كسب الوقت والاستمرار فى عملية التهويد .

٧ — قبل أن ينسحب الانجليز من فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ سلموا لليهود أهم المدن العربية ، حيفا ويافا وطبرية وبيسان وصفد والأحياء العربية فى القدس الجديدة .

٨ — سلموا لليهود معسكراتهم فى فلسطين بما فيها من أسلحة ومعدات ومؤن بلا مقابل ، كما سلموهم المنشآت الحكومية والدوائر الرسمية بما فيها من أوراق ووثائق وسجلات .

٩ — حققوا سياستهم الاجرامية الرامية إلى تسليم فلسطين لليهود خالية من أهلها العرب ، وذلك بأن تسببوا فى هجرة غالبية الذين هاجروا من فلسطين[1] .

ولم يبدأ العرب تحركهم الفعلى إلا بعد أن ضاعت فلسطين ، وأصبحت إسرائيل أمراً واقعاً وأقرت الأمم المتحدة مشروع التقسيم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ الذى نص على تأسيس دولة عربية ودولة يهودية واعتبار منطقة القدس وبيت لحم منطقة دولية .

وبدأ دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ بعد جلاء القوات البريطانية ، وبعد فوات الوقت . ولم تصنع الجيوش العربية شيئاً .

وهكذا قامت إسرائيل على أنقاض الأمة الفلسطينية .

٥٨ — هل وعى المسلمون العبرة ؟

لا يهمنا هنا كثيراً أن نتوقف عند تفاصيل مأساة ضياع فلسطين على يد اليهودية العالمية ، وبمساعدة الصليبية العالمية ، فالحقيقة المؤكدة أن دولة الصهاينة قد قامت على أرض فلسطين ، وأنها استطاعت أن تصـــفى العنصر البشرى

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧٢ — ٣٧٦ .

الفلسطينى أو تجبره على النزوح ، واستطاعت أن تغرى اليهود فى كل أقطار الأرض وتدفع معظمهم إلى النزوح إلى فلسطين ، واستطاعت اليهودية أن توحد بين الانجليزى والفرنسى والأمريكى والروسى والبولندى واليمنى والعراقى وسائر جنسيات الدنيا ، لتكون العبرية هى اللغة والجنسية هى الاسرائيلية ، والهدف هو جمع شتات اليهود لتحقيق حلمهم الأكبر فى إقامة دولتهم الكبرى من النيل إلى الفرات .

فهل وعى المسلمون العبرة بعدما استطاع أعداؤهم أن يضعوا حرابهم فى القلب منهم . وأن يوجهوها حيث شاؤوا . ؟ !

فى ظنى أننا لم نأخذ بعد العبرة ، ولم نتعلم بعد الدرس ، ولا يبدو حتى أننا فى الطريق إلى أن نعى ما صنعنا بأنفسنا ، وما نهيء لأعدائنا أن يصنعوا بنا .

فقد ضاعت فلسطين أو ضاع جزء رئيسى منها أقام اليهود دولتهم عليها ، ولم يبدأ المسلمون فى التحرك الجاد إلا بعد أن أصبحت إسرائيل حقيقة واقعة ، وعندما تحرك المسلمون لم يتحركوا كمسلمين وإنما تحركوا كعرب ، واجهوا اليهود بقومياتهم ولم يواجهوهم بدينهم ، واجهوا الوحدة بالتفرق ، والهدف الدينى بالأهداف الدنيوية ، وكانت النتيجة أن قامت إسرائيل .

وقلنا إن السبب فى ضياعها يرجع أولا إلى الاحتلال الأجنبى الذى كان يتحكم فى معظم أقطار الأمة العربية ، وأنه من أجل ذلك فإن حركة الشعوب العربية فى مواجهة اليهودية كانت حركة مقيدة بقدر ماتسمح به إرادة المستعمر ، الذى كان هو بذاته الذى خطط ودبر ومهد لقيام إسرائيل ! ونسينا أن الاستعمار نفسه كان نتيجة لمقدمة صنعناها نحن بأيدينا ، ولم يكن مقدمة لنتيجة ! وما لم تتغير المقدمات الأولية التى صنعناها نحن ومازلنا نصنعها بأشكال مختلفة ، فإن علينا أن ننتظر نفس النتائج ، أو نتائج مشابهة لها .

فالاستعمار الأجنبى للدول الاسلامية لم يكن إلا نتيجة لتحلل الخلافة

الاسلامية ، وبعدها عن الحكم بشريعة الاسلام ، وسيادة ظاهرة « القوة » بدلا من سيادة حكم « القانون الاسلامى » فى الدولة الاسلامية ، وأدى ذلك إلى التشقق والخلافات والصراعات بين أبناء الأمة الاسلامية ، وإلا فأين كانت الخلافة الاسلامية والقوة الاسلامية ، حين غزا نابليون مصر ، أو احتلت فرنسا الجزائر ، أو احتل الانجليز مصر ، أو وقعت شعوب أواسط آسيا المسلمة فى قبضة القياصرة . لو كان المسلمون وحدة وقوة لما حدث بهم ما حدث .

ولذلك فقد انحسر الاستعمار عن معظم الدول العربية قبل عام ١٩٥٦ ، ومع ذلك فلم تكن مواجهتنا مع إسرائيل بالمواجهة المشرفة لنا ، وقد نختلف حول المواجهة مع إسرائيل عام ١٩٥٦ ، ويرى البعض أننا واجهنا عدواناً دولياً ، وأن أنفاسنا لم تكن قد التقطت بعد من آثار استعمار طويل . وقد يكون فى ذلك بعض الحق ، لكن صورة المواجهة فى عام ١٩٦٧ ، توضح لنا حقيقة الموقف، فلم يكن هناك استعمار، ولا شبه استعمار ، وكان السلاح متوافراً لدينا ، وكانت المواجهة مع إسرائيل وحدها ، ولم تكن مواجهة مع مصر وحدها ولكنها كانت مع سوريا والأردن أيضاً ، ولكن كانت نتيجة المواجهة عار لحق بنا جميعاً ، لماذا حدث ذلك . ؟

ببساطة لأن حكم « القـــوة » لم يته بيننا ، وبالتالى استمرت الصراعات الداخلية ، وتولى أراذل الناس أمورهم ، وبدلا من أن ننطلق من دعوانا إلى الوحدة بين شعوب المنطقة من منطلق الوحدة الذى صنع دولة إسرائيل فى المنطقة، وهو منطلق الدين ، بدأنا دعوة الوحدة من منطلق القومية العربية ، ونسينا أن تعميق دعوة القومية ما وجد أساساً إلا للقضاء على وحدة المسلمين .

وهكذا استمرت ظاهرة « القوة » فى حكم الشعوب الإسلامية من الداخل وما ترتب عليها من استمرار الصراع الداخلى بين أبناء الوطن الواحد ، وهو ما أدى فى النهاية إلى إضعاف الوطن ككل ، وأدت الدعوة إلى القومية إلى

اشتعال الصراع بين دول المنطقة المختلفة ، واشتداد الصراع بينها ، وبالتالى فقدت وحدتها الحقيقية فى مواجهة العدو . وكانت النتيجة الحتمية هو انتصار إسرائيل واحتلالها لكل الوطن الفلسطينى بالكامل ولشبه جزيرة سيناء فى مصر ولمنطقة الجولان فى سوريا .

وما زالت إسرائيل تحتل الأرض التى استولت عليها فى عام ١٩٦٧ ، وقد مضى ما يقرب من عشر سنين على احتلالها ، وما زالت تعمل بكل طاقتها على تهويد الأرض التى احتلتها ، ومع ذلك فهل أخذنا العبرة ، أو اتضحت فى أذهاننا أبعاد الموقف الحقيقية ، داخلياً ما زال حكم « القوة » يسود ، والانفراج نحو حكم « القانون » فى بعض دول المنطقة مازالت خطاه تتعثر ، والنتيجة هو استمرار الصراعات الداخلية ، وخروج طوائف مختلفة من أبناء الوطن عليه ، وهذا كله لا بد أن يؤدى إلى الضعف ، ولا يمكن أن يؤدى إلى قوة الوطن .

وقومياً فإن الصراعات والخلافات لم تلتهب بين دول المنطقة ، وأخذت فى بعض الأحيان صورة الصراعات المسلحة بين أبناء شعوب المنطقة كما حدث على أرض لبنان ، وأريقت فيه دماء اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين ، وأخذت فى بعض الأحيان صورة حادة من صور العنف المختلفة كما حدث بين مصر وليبيا ، وبين ليبيا والسودان . وبين مصر وسوريا أحياناً ، وبين مصر والفلسطينيين أحياناً أخرى . وهذا كله هو إضعاف لشعوب العالم الإسلامى فى مواجهة اليهودية على أرض فلسطين .

* * *

وبعد لعلنا فى النهاية نرى أن عودة الدين الإسلامى ، كقانون يحكم شعوب الأمة الإسلامية من الداخل ، وكرابطة من أبناء الأمة الإسلامية تعلو على رابطة القوميات الإقليمية ، هو أمر حتمى لهذه الأمة إن أرادت لنفسها وجوداً بين دول العالم المختلفة ، ولشعوبها أمناً واستقراراً ، ولدينها عزة وكرامة .